الفصل الثانى

الخطيب

صفات الخطيب

نستطيع أن نجمع من استقرائنا لأخبار الخطباء على توالى العصور مجموعة من الصفات الحسية والمعنوية التى يمتاز بها خطيب من خطيب ، والتى تعين فى مجموعها على تكوين ذلك الضرب من الخطباء الذى تصل عباراته إلى قلوب السامعين وعقولهم فتفعل بها ما لا يفعل السحر .

ولا شك أن لشكل الخطيب ومظهره الخارجى وحلاوة صوته وجهارته وحسن إلقائه ونبل حركاته ووقار سمته أثراً كبيراً فى تأثيره فى سامعيه ، ويحدثنا « دى جرانج » مؤرخ الأدب الفرنسى عن المزايا الطبيعية الجسدية التى أعدت « ميرابو » لأن يكون خطيباً ممتازاً على الرغم من قبح خلقته . فإن كتفيه القويتين ، ونظراته الخاطفة ، وصوته القوى المرن ، وتحكمه فى أعصابه ، مما أعانه فى كثير من المواقف . كما امتاز « غامبتا » الخطيب السياسى المشهور بحسن سمته ، وجهارة صوته ، ومحمل رأسه فوق جسده فى ثبات ، كأنه يشير إلى اعتزازه أمام الخطوب .

وللخطباء من العرب فى إشاراتهم وحركاتهم على المنابر مذاهب . فكان « أبو شمر » إذا خطب لم يحرك يداً ولا منكباً ، ولم يقلب عينيه ، ولم يحرك رأسه ، حتى كأنما كلامه يخرج من صدع صخرة . ورأيه أن صاحب المنطق لا ينبغى له أن يستعين عليه بغيره من وسائل الإشارة والحركة . وما زال كذلك حتى أقنعه « إبراهيم النظام » بضرورة ذلك للخطيب . وكان « أيوب بن جعفر »

العباسى حاضراً ذلك فتحول منذ ذلك اليوم من عدم الحركة إلى الاستعانة على الخطابة بالحركات والإشارات .

وقد استعان الخطباء والمتكلمون على تصريف وجوه القول والتعبير عن المعانى بالإشارة بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم ، كأن جوارحهم تعين اللسان على البيان ، فإذا أشاروا بالعصى فى أثناء خطبهم فكأنهم قد وصلوا بأيديهم أيدياً أخر ، وإلى هذا يشير الشاعر بقوله :

يصيبون فصل القول فى كل خطبة إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصر

وكان من تمام سمْت الخطيب عند العرب أن يلبس الملحفة أو الجبة أو القميص ، وقد يستغنى عنها ، أما الذى لابد منه فالعمة فوق رأسه والمخصرة فى يده ، وهى عصا قصيرة أو قضيب قد يتخذ من غرائب الخشب وكرائم العيدان كالنبع والآبنوس . وقد يتكئ الخطيب على طرف القوس ، يخدُّ بها وجه الأرض إذا حمى أمامه المجال ، واتسع المقال .

واشترطوا فى الخطيب أن يخطب قائماً فى حالات الخطب كلها ، وخاصة فى الصلح والحمالة والمحالفة ، ليكون ذلك أوكد للعهد ، وأبلغ للقصد . أما فى خطب الزواج فقد اشترطوا القعود . والخطيبُ الخطيبُ هو الذى لا يفترق شأنه فى حالى القعود والقيام ، كالإمام علىّ الذى قال فيه الحارث الأعور : والله لقد رأيت علياً ، وإنه ليخطب قاعداً كقائم ، ومحارباً كمسالم .

رباطة الجأش واليقظة

ولا شك أن الخطابة موقف قد يزل فيه الرجل إذا لم يكن ضليعاً به ولا قديراً عليه . ولقد حدثتنا كتب الأدب والتاريخ عن خطباء تهيبوا المنابر ، حتى لقد صرح الخليفة عبد الملك بن مروان بأن الذى عجل عليه شيبه هو الوقوف على

المنابر مرة أو مرتين كل جمعة . ولهذا اشترطوا فى الخطيب أن يكون رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، ثابت النفس حتى لا تستولى عليه الحيرة ويتملكه الدهش ، فيورثاه الحصر وحبسة اللسان ، وهما سبب الإرتاج والإجبال . وقد نقل لنا أبو هلال العسكرى صاحب كتاب « الصناعتين » عن حكيم الهند بعض آلات البلاغة عند الخطيب ، فكان من أولها رباطة الجأش وسكون الجوارح .

وما أكثر ما تعين رباطة الجأش عند الخطيب على تنبهه لما يدور حوله ، ويقظته لما يجرى بين السامعين ، مما يجعله على أهبة الاستعداد لأن يلبس للأحوال لبوسها ، وأن يأخذ لها عددها . فلا يباغت بحركة أو إشارة ، أو فضلة من القول أو الفعل . ولقد جمع عمر بن الخطاب إلى آلة البلاغة آلة التنبه ، فقد كان وهو خليفة يخطب على المنبر فى يوم جمعة ، فدخل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقال عمر : ما بال أقوام يسمعون الأذان ويتأخرون ؟ فقال عثمان : والله ما تأخرت إلا ريثما توضأت . فقال عمر : وهذا أيضاً . . . أما سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أتى الجمعة فليغتسل » ! ؟

سرعة البديهة والتذكر

إن الخطيب واحد أمام كثرة ، وفرد أمام جماعة ، وقد تأخذه هذه الفكرة فتقطع عليه خيط تفكيره ، وتحبس سيل تعبيره ، وقد يصادف من هذا الموقف الرائع ، أو الجمع الحاشد بما لابد فيه من سرعة الخاطر فوق سكون الجارحة ، حتى يخلص من المأزق إذا عرضت له ، ويتخلى عن الحرج إذا وقع فيه . وإلا خذل فى مقام ضيق لا يفرجه إلا البديهة الحاضرة ، والخاطر الموانى السريع . وقد لا يكون الحرج آتياً من الحصر أو الإرتاج ، فقد يكون فى الموقف نفسه ، أو قد يجدُّ فيه ما يجدُ الخطيب نفسه معه مضطراً إلى إحدى اثنتين : فإما أن

يتغلب على الموقف أو الطارئ بالرد المفحم ، والجواب المقنع ، وإما أن يستسلم فتخذله العبارة ، ولا يساعفه الفكر فينهزم على المنبر ، وخاصة إذا كان له خصوم ، كخطباء التقاضى والخطباء السياسيين .

ولقد روى لنا تاريخ الخطابة العربية أن بعض خلفاء العباسيين ارتقى المنبر ليخطب ، فسقطت على وجهه ذبابة ، فطردها ، فرجعت ثانية فطردها ! إلى أن ضايقه ذلك بما انقطع معه خيط تفكيره وتعبيره ، فأدركه الحصر والإرتاج ، فلم يجد غير آية من القرآن يستنقذ بها الموقف ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم . « يأيها الناس ضربٌ مثلٌ فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضَعفَ الطالب والمطلوب » ثم نزل . فاستحسن الناس منه ذلك التخلص .

على أن الخطيب قد يؤخذ بهيبة المقام فيخطئ فى حادثة أو تاريخ أو عدد معين ، وقد يتصدى له من السامعين من يصلح له خطأه ، فإذا لم يخرج من هذا المأزق بما تسعفه به بادرة حاضرة فإنه لا شك صائر إلى الهزيمة على المنبر ، وهى هزيمة يرجى دائماً السلامة منها ، وعدم الصبرورة إليها ! ومن أسعفهم البديهة بالخلاص من مأزق فى الخطابة وكيع بن أبى سود التميمى أحدُ أبطال المسلمين فى فتوح بخارى مع قتيبة بن مسلم ، فقد كان يخطب مرة فى جند العرب بخراسان فقال : إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أشهر . فقال له أحد السامعين : إنها ستة أيام ! فقال : وأبيك لقد قلتها وإنى لأستقلها ! !

وهكذا خرج من الورطة بنكتة لطيفة تدل على عجيب صنع الله وبديع خلقه ، فإن مثل خلق السموات والأرض ليحتاج إلى الشهور والأعوام .

ويحدثنا تاريخ الخطابة أيضاً بحديث ذلك الخطيب الإيادى عدى بن زياد الذى صعد المنبر فقال : أقول لكم كما قال العبد الصالح لقومه : « ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » ، فقال له أحد السامعين : ليس هذا

من قول العبد الصالح وإنما هو من قول فرعون ! فقال : من قاله فقد أحسن !

فهو يخلص من الخطأ بطريقة سريعة لطيفة ، وهى أنه لا يعنيه أن يكون القائل صالحاً أخا ثمود ، أو فرعون ذا الأوتاد ، وإنما يعنيه أن ما قيل هو أكثر انطباقاً على أحوالهم ، وأصدق دلالة على موقفه منهم .

ولعل أذكى ما يحضرنا الآن من بدائه الخطباء فى ضيق المواقف هو ما حدث لقتيبة بن مسلم البطل الفاتح وهو على المنبر وما حدث منه . فقد كان يخطب مرة على منبر خراسان ، وهو موغل فى فتوحاته هناك ، فسقط القضيب من يده ، فتفاءل له عدوه بالشر ، واغتم له الصديق ، فعرف ذلك قتيبة ، فأخذ القضيب من على الأرض وقال : ليس الأمر على ما ظن العدو ، وخاف الصديق ، ولكنه كما قال الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر !

ولعل من البدائه القوية الحاضرة ما خطب به الحجاج بن يوسف ردًّا على من أرجفوا بموته فى مرض له ، فقد أراد بألا يسكت على أراجيفهم ، وألا يبدى الهلع من حادث الموت الذى أرجفوا به والذى يودونه له ، فتحامل والمرض شديد الوطأة عليه ، وصعد المنبر فقال : « إن طائفة من أهل العراق ، أهل الشقاق والنفاق ، نزغ الشيطان بينهم ، فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج ! فَمَه ! وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسرنى ألا أموت ، وأن لى الدنيا وما فيها ، وما رأيتُ الله رضى بالتخليد إلا لأهون خلقه عليه : إبليس ، قال : أنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين . ولقد دعا الله العبد الصالح ، فقال : « رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى » ، فأعطاه ذلك إلا البقاء . فما عسى أن يكون أيها الرجل ؟ وكلكم ذلك الرجل ، كأنى والله بكل حى منكم ميتاً ، وبكل رطب يابساً ، ونُفِل فى ثياب أكفانه إلى ثلاث أذرع

طولاً فى ذراع عرضاً ، وأكلت الأرض لحمه ، ومصت صديده ، وانصرف الحبيب من ولده يقسمُ الخبيثَ من ماله . . إن الذين يعقلون يعلمون ما أقول » ثم نزل .

ولقد كان من أسرع البدائه فى الخطابة المعاصرة بديهة لويد جورج الخطيب الإنجليزى المشهور ، فقد حدثوا أنه كان يخطب مرة فى الحكم الذاتى ، فقال : سنعطى الحكم الذاتى لكندا ، وسنعطيه لإيرلندة ، وسنعطيه لـ . . . ولم يكد يكملها حتى قال رجل من السامعين : لجهنم ! فرد عليه لويد جورج قائلاً : هو ذاك ، يعجبنى أن يتذكر كل إنسان وطنه !

ومما اشترطوه فى الخطيب أن يكون سريع التذكر ، وأن يكون ذكوراً لأول خطبته وللذى بنى عليه أمره ، فإذا شغب عليه شاغب ، أو حدث من الأمور ما يضطر به إلى قطع كلامه ، فإنه يستطيع بما له من قوة التذكر أن يصل آخر الكلام بأوله ، وخوالفه بسوالفه ، حتى لا تنقطع نياط فكرته ، وحتى لا يكون أحد كلاميه أجود من الآخر . ومن الخطباء العرب الذين امتازوا بقوة التذكر خالد بن صفوان ، فقد قالوا إنه كان أذكر الناس لأول كلامه ، وأحفظهم لكل شىء سلف من منطقه .

ومفهوم أن شرط التذكر لا يكون إلا حين ارتجال الكلام وابتداء الخطب ، أو حين الإلقاء عن كلام محفوظ ، أما حين الإعداد والإلقاء من ورق فإن الذاكرة هنا لا يقوم مقامها إلا حضور البديهة ، استعداداً لما قد يستحدث من الأمور .

ثقافة الخطيب

يختلفُ القدرُ المطلوب من ثقافة الخطيب بحسب نوع الخطبة وثقافة الذين يسمعونه ، فخطبة الزواج مثلاً لا تحتاج إلى قدر من الثقافة قدر ما تحتاج إليه خطبة سياسية ، أو خطبة قضائية مثلاً . إلا أن الخطيب على كل حال يجب أن

يكون عنده من اتساع الثقافة وامتداد آفاق المعرفة ما يمكنه من إجادة الموضوع الذى يخطب فيه ، حتى يضاف عنصر المعرفة إلى مجموع العناصر التى تتكون منها شخصية الخطيب ، والتى يؤثر مجموعها فى نفسية السامعين فيستولى الخطيب على مشاعرهم وعقولهم .

وعلى قدر البيئة التى يكون فيها الخطيب تكون ثقافته ، فإن العرب لم يحتاجوا فى جاهليتهم إلى ثقافة واسعة فى الخطيب إلا بالقدر الذى يكون له به التأثير فيهم ، فكما اشترطوا فى الشاعر أن يعرف الأنساب والأيام والأخبار حتى يكون على علم بذلك حين يمدح أو يهجو أو يفتخر ، فكذلك كان مفروضاً فى الخطيب الجاهلى أن يعرف القبائل والأنساب والوقائع والتاريخ حتى تجتمع له من ذلك مادة الخطبة حين ينافر ، أو يفاخر ، أو يهادن ، أو يحرض قومه على قتال ، أو يدافع عن أحساب قومه . كما حدث بين طريف بن العاص والحارث بن ذبيان حين تفاخرا عند بعض أقيال العرب .

على أن مجتمعاً كالمجتمع الإغريقى فى عهد الفلاسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو كان يتطلب من الخطيب قدراً عالياً من الثقافة والمعارف العامة ، حتى لقد شرط أرسطو فى كتاب « الخطابة » أن يلم الخطيب بموارد الدولة ومصارفها ، وما عملته الشعوب فى سبيل إنماء ثرواتها ، كما اشترط فيه العلم بأمور الذياد عن الوطن ، ووسائل التغذية ، ونظم الحكم ، وأصول الأخلاق ، والأدلة وغيرها مما كانت تقتضيه طبيعة المجتمعات الإغريقية فى القرن الرابع قبل الميلاد .

ولا يزال تاريخ الخطابة يذكر لميرابو اتساع دائرة معارفه إلى حد أدهش جميع مترجميه . وليس المقصود من ثقافة الخطيب إلا ذلك القدر الذى يسعفه حين تكون المعارف وسيلة إلى إنارة الظلام ، وتبديد الأوهام ، وجلاء الأفهام . والخطيب الناجح يستطيع حتى فى خطب المدح والتكريم أن يطوف فى عالم المعرفة بما يجعل لخطبته وقعاً فى النفوس ، بدلاً من أن تكون عبارات جوفاء ، يكاد ينقلب فيها المدح إلى رياء . . .

دراسة الخطيب لنفسية السامعين

يستطيع الخطيب متى عرف نفسية السامعين أن يضرب على الوتر الحساس الذى يهزهم ، وأن يصل إلى مواضع التأثير من نفوسهم ، وأن يحملهم على الهدف الذى ينشده فى غير عسرة عليه ولا جماح منهم . إنه يستطيع متى كان طبّاً بالنفوس أن يلعب بمشاعرهم ، وأن يعرف أهدى السبل إلى إقناعهم أو استمالتهم ، وأن يتخير الكلمة الملائمة لإثارتهم ، أو يبرز الحدث المثير لعواطفهم ، أو يطامن من غرورهم وغلوائهم ، ويسكن من ثائرة نفوسهم .

ولعل أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان نفسيّاً بارعاً حين علم عزم الأنصار على أن يولوا سعد بن عبادة خليفة لرسول الله بعد أن لحق بربه ، فقد كانوا يظنون فى أنفسهم فضل حماية الرسول وإعزاز دين الله ، والجهاد لأعدائه ، ناسين — أو متناسين — فضل المهاجرين من قريش ، فدخل عليهم أبو بكر وهم مجتمعون تحت سقيفة بنى ساعدة فخطب فيهم قائلاً : « أيها الناس ! نحن المهاجرون ، أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثر الناس ولادةً فى العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم . أسلمنا قبلكم ، وقدّمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان » فنحن المهاجرون ، وأنتم الأنصار ، إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً ! فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله » .

نعم ! كان الصدّيق طبّاً بالنفوس يومئذ ، فلم ينكر للأنصار فضلاً ولم ينقصهم فضيلة ، بل ذكرهم بالإخاء الإسلامى بينهما ، وذكرهم بتقديم القرآن

لهم عليهم ، ودعا لهم بحسن الجزاء من الله على ما قدموا من خير ، ثم هددهم — فى رفق وتلطف — بأن العرب لا تدين إلا لقريش قوم المهاجرين .

ولما قام عدى بن حاتم الطائى يستنفر قومه لنصرة الإمام على علم أن طريق الآخرة وحده لا يكفى لاستنفارهم وحضهم على القتال فى سبيل الإمام ، فلجأ إلى طريق الدنيا ومغانمها يغريهم بها ، فقال فيهم من خطبة له : « وقد كنتم تقاتلون فى الجاهلية على الدنيا ، فقاتلوا فى الإسلام على الآخرة ، فإن أردتم الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ، وأنا أدعوكم إلى الدنيا والآخرة . . . وقد ضمنت عنكم الوفاء . . . وقد أظلكم علىّ والناس معه من المهاجرين والبدريين والأنصار ، فكونوا أكثرهم عدداً ، فإن هذا سبيل للحى فيه الغنى والسرور ، وللقتيل فيه الحياة والرزق »[1] .

ولقد كان معاوية بن أبى سفيان من أخبر خطباء العرب بالنفسيات التى يخطب فيها ، وكان له فى استلال سخائم النفوس طريقة بارعة يترضى بها الغضاب ، ويهدئ بها الثورات ، حتى تلين له مقادة الرجال . فحينما بايع لابنه يزيد وكتب ببيعته إلى الآفاق ، أبى مروان بن الحكم عامله على المدينة أن يقر بالبيعة ، فعزله معاوية وولى مكانه سعيد بن العاص ، فجاء مروان مغاضباً من المدينة إلى دمشق ودخل على معاوية يخطب هادراً كالسيل ويهدد ويتوعد ، ويقول فيما يقول : « فأقم الأمر يا بن أبى سفيان ، واعدل عن تأميرك الصبيان ، واعلم أن لك فى قومك نظراء ، وأن لهم على مناوأتك وزراء » فغضب معاوية من هذا الكلام غضباً شديداً ، ولكنه كظم غيظه ، وكتم غضبه ، وأخذ بيد مروان أمام الجمع الحاشد وهو يخطب قائلاً : « إن الله قد جعل لكل شىء أصلا ، وجعل لكل خير أهلا ، ثم جعلك فى الكرم منى محتداً ، والعز يز منى والداً ، اخترت من قروم قادة ، ثم استللت سيد سادة ، فأنت ابن ينابيع الكرم . . .

---

(١) فى هذا إشارة إلى قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

فرحباً بك وأهلاً من ابن عم ! ذكرت خلفاء مفقودين ، شهداء صديقين ، كانوا كما نعتَّ ، وكنت لهم كما ذكرت ، وقد أصبحنا فى أمور مستحيرة ، ذات وجوه مستديرة ، وبك والله يابن العم نرجو استقامة أودها ، وذلولة صعوبتها ، وسفور ظلمتها ، حتى يتطأطأ جسيمها ، ويُركب بك عظيمها ، فأنت نظير أمير المؤمنين ، وعدته فى كل شديدة وعضده ، والثانى بعد ولى عهده ! فقد وليتك قومك ، وأعظمت فى الخراج سهمك ! وأنا مجيز وفدك ، ومحسن رِفدك ، وعلى أمير المؤمنين غناك ، والنزول عند رضاك ! »

ولقد سكنت بالطبع ثائرة مروان بعد هذه الخطبة البارعة ، وبعد هذا المدح الذى خلعه الخليفة الحليم على وال ثائر ، وبعد هذا الوعد بالخلافة بعد ولى عهده يزيد ، وبعد هذا العطاء الجزل والنائل الضخم الذى أضفاه معاوية على مروان وعلى وفده وأهله الذين حضروا بباب الخليفة معه ! !

ولعل الحجاج كان أقدر على التخلص من أزمات النفوس حين يشتد الأمر ، فما هى إلا خطبة يلقيها ، أوكلمة يقولها حتى تهدأ النفوس . فلقد قتل عبد الله ابن الزبير بعد محاربة عنيفة ، وكان ابن الزبير محبوباً عند أهل مكة ، فارتجت أنحاؤها بالبكاء لمقتله سنة ٧٣ هـ ، وفى خلال هذه المناحة المستحرَّة صعد الحجاج المنبر فقال : « ألا إن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة ، حتى رغب فى الخلافة ، ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله . ولو كان شىء مانعاً للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم على الله أكرم من ابن الزبير ، والجنة أعظمُ حرمةً من الكعبة » .

وتتجلى مقدرة الحجاج بن يوسف على دراسة النفوس والتغلغل إلى الأعماق إبان الخطبة فى خطبته بعد واقعة « دير الجماجم » التى هزم فيها ابن الأشعث سنة ٨٣ هـ بعد خروجه على الحجاج ومبايعة الجند على خلعه . فقد اجتمع حول

منبر الحجاج جمع من أهل العراق وأهل الشام ، فوجه الكلام إلى أهل العراق قائلاً : « يا أهل العراق ، والكفرات بعد الفجرات ، والغدرات بعد الختّرات ، والنزوات بعد التزوات ! إن بعثتكم إلى ثغوركم غلثم وخنتم ، وإن أمنتم أرجفتم ، وإن خفتم نافقتم ، لا تذكرون حسنة ، ولا تشكرون نعمة ، هل استخفكم ناكث ؟ أو استغواكم غاو ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم خالع إلا تبعتموه وآويتموه ، ونصرتموه وزكيتموه ؟ يا أهل العراق ! ألم تنهكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع ؟ » ثم التفت إلى أهل الشام فقال : « يا أهل الشام ! إنما أنا لكم كالظليم[1] الرامح عن فراخه ، ينفى عنها المدر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذئاب . يا أهل الشام ! أنتم الجنة[2] والرداء ، وأنتم العدة والحذاء » .

قوة الاحتجاج ومقارعة الحجة

وإذا كان الاحتجاج وقوة الحجاج واجبةً فى الكتابة عموماً فإنها فى الخطابة أوجب . فالخطيبُ قد يعرض له وهو على المنبر ما يبطل حجته أو يوهن منها ، فلابد أن يكون على تمام الأهبة لمقارعة الحجة بالحجة ، ومقابلة الدليل بالدليل ، حتى لا يغلب على أمره فى لحظة لا تغنى فيها الروية قدر ما تسعف البديهة الحاضرة والحجة العتيدة . وقد تكون القضية التى يتكلم فيها الخطيب من الوضوح بحيث لا يحتاج معها إلى الإبانة والكشف عن وجوه الحسن فيها أو القبح بها . ولكن الخطيب البارع هو الذى يحتال بصنوف التحيل والعلل ليحسن ما ليس بحسن فى سمع سامعه ، أو ليقبح ما يتوهمه السامعون حسناً ، ليصل بهم إلى ما يريد . وأظهر ما يكون ذلك فى خطب السياسة والدفاع والحروب . فالقائد

---

(١) الظليم : ذكر النعام . والرامح : المدافع عن فراخه .

(٢) الجنة : الوقاية .

الخطيب الحق قد يزين الموت أمام عيون جنده حتى يقدموا عليه فى غير وجل ، والسياسى الخطيب قد يحمل خصمه على قبول رأى قد لا يوافق هواه . وتلك مرتبة فى البلاغة لا يسمو إليها إلا العباقرة . ألسنا جميعاً نجمع على فضل المشاورة ومدحها ؟ ولكن عبد الملك بن صالح ذم المشورة بأسلوب يكاد ينفرنا منها فقال : « وما استشرت أحداً إلا تكبر علىّ وتصاغرتُ له ، ودخلته العزةُ ودخلتنى الذلة ، فعليك بالاستبداد — يعنى بالرأى — فإن صاحبه جليل فى العيون ، مهيب فى الصدور ، وإذا افتقرتَ إلى العقول حقرتك العيون ، فتضعضع شأنك ، وَرجفت بك أركانك » .

وأيةُ نفس لا تقدم على الموت حين تسمع « عقبة بن حديد النمرى » وهو يخطب حاضًّا الناس على لقاء الموت يوم صفين قائلاً : « ألا إن مرعى الدنيا قد أصبح هشيما ، وأصبح شجرها خضيداً ، وجديدها سملا[1] ، وحلوها مر المذاق . ألا وإنى أنبئكم نبأ امرئ صادق : إنى قد سئمت الدنيا ، وعزفت نفسى عنها ، وقد كنت أتمنى الشهادة ، وأتعرض لها فى كل جيش وغارة ، فأبى الله عز وجل إلا أن يبلغنى هذا اليوم . ألا وإنى متعرض لها من ساعتى هذه ، وقد طمعتُ ألا أحرمها ، فما تنتظرون عباد الله بجهاد من عادى الله ؟ أخوفاً من الموت القادم عليكم ، الذاهبِ بأنفسكم لا محالة ؟ أو من ضربة كف بالسيف ؟ أتستبدلون الدنيا بالنظر فى وجه الله عز وجل ، ومرافقة النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين فى دار القرار ؟ ما هذا بالرأى السديد ! » .

ولعل أقوى ما فى حِجَاج الخطباء هو ما حاجَّ به الحسين عليه السلام معاوية رضى الله عنه حين بايع لابنه يزيد وغالى فى مدحه ، ووصفه بالعلم بالسنة وقراءة القرآن والحلم الذى يرجح بالصم الصِّلاب . وهنا لم يطق الحسين عليه السلام صبراً

(١) السمل القديم من الثياب . والجمع أسمال .

فقام يخطب ويبطل الكلام بقوارع السهام قائلاً لمعاوية : « . . . وفهمتُ ما ذكرته عن يزيد ، من اكتماله وسياسته لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، تريد أن توهم الناس فى يزيد ، كأنك تصف محجوباً ، أو تنعتُ غائباً ، أو تخبر عما كان مما احتويتَه بعلم خاص . . . وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه ، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المتهارشة عند التحارش ، والحمام السُّبَّق لأترابهن ، والقينات ذوات المعازف ، وضروب الملاهى ، تجده ناصراً : ودَع عنك ما تحاول ! فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه . . . فوالله ما برحتَ تقدم باطلاً فى جوْر ، وحنقاً فى ظلم ، حتى ملأت الأسقية ، وما بينك وبين الموت إلا غمضة » .

أخلاق الخطيب

لقد كان الخطيب حتى فى عصور الجاهلية الأولى هادياً ومرشداً ، وهو سيان فى الدعوة إلى الحرب أو الدعوة إلى السلم لا يخرج عن سنن الأدب الكريم ، وقد يحض الخطيب على القتل وخوض المعارك ولكنه يلتزم جادة الخلق وعفة النطق وأدب المقال ، فلا يخرجه الغضب عن طور الاعتدال ، ولا يبعد به السخط عن نهج التصون فى الكلام ، على أن أكثر الخطباء تحتم عليهم طبيعة فنهم أن يكونوا على غرار من الخلق لا يتوفر لغيرهم من الناس . وإذا كانت السياسة معروفة بالتواء القصد ، فإن أنجح الخطباء السياسيين من عرفت عنه سلامة الخلق ، واستقامة السلوك ، حتى لقد اشتهر الجنرال فوى الخطيب الفرنسى المشهور بصحة الأخلاق قدْرَ اشتهاره بمقدرته الخطابية . وقد اشترط أرسطو فى الخطيب قدراً من الأخلاق يبعث الثقة فيه ويوجب الاهتمام بما يقول ، وعدَّ أخلاقَ الخطيب ذاتَ أثر قوى فى إقناع سامعيه . وما أكثر ما يصح هذا فى خطباء الاجتماع وخطباء المواعظ والنصح والإرشاد ، وإلا صح فيهم قول القائل :

لا تنـــه عن خلق وتأتى مثله عار عليـــك إذا فعلت عظيم

وليس بخطيب من يفقد على المنبر صوابه ، فيلجأ إلى مسابة خصمه ، وهى أوهى الحجج التى يلجأ إليها الضعاف الضيقو الأعطان . وقد ترك لنا الإمام على كرم الله وجهه فى ذلك أبلغ الدروس ، فقد خرج اثنان من أنصاره يسبان أهل الشام ويظهران البراءة منهم ، فنعهما من ذلك . فقالا له : ألسنا على حق وهم على باطل ؟ قال : بلى ، قالا : فلم منعتنا من شتمهم ؟ قال : « كرهتُ لكم أن تكونوا لعّانين شتامين ، تشتمون وتبرءون ، ولكن لو وصفتم مساوئ أعمالهم ، فقلتم : منْ سيرتهم كذا وكذا ، ومنْ أعمالهم كذا وكذا ، كان أصوب فى القول ، وأبلغ فى العذر ، وقلتم مكان لعنكم إياهم ، وبراءتكم منهم : اللهم احقن دماءهم ودماءنا ، وأصلح ذات بينهم وبيننا ، واهدهم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحقّ منهم من جهله ، ويرعوى عن الغى والعدوان منهم من لهج به ، لكان أحبّ إلىّ ، وخيراً لكم » .

فقالا : يا أمير المؤمنين ! نقبل عظتك ، ونتأدب بأدبك .

موقف الخطيب

إن موقف الخطيب ليس مما يسهل على كل نفس أن تقفه ، ولا يجترئ عليه إلا متمرس به قادر عليه متثبت من نفسه ، أو غر جاهل صفيق أديم الوجه ، لا يبالى أن يدركه الحصر ، أو يقطع البهر أنفاسه .

وقد يألف بعض الخطباء المنابر وتألفهم ، ولكنهم مع ذلك لا يملكون أنفسهم مما قد يعرض للخطيب فى الموقف الحرج والمقام الضيق ، إلا أن كثرة ممارسة المنابر قد تهون على النفس عناء هذا المركب الوعر ، الذى شابت له شعرات رأس خليفة مثل عبد الملك بن مروان .

والحق — كما قال ابن مروان — أن الخطيب يعرض على الناس عقله ، فكيف لا يشيب من يتعرض لمثل هذه التجربة الخطيرة مرة فى الأسبوع على الأقل ، حين كان الخليفة يخطب بالرعية فى صلاة الجمعة ؟

والخطيب معذور حين يتهيب موقف الخطابة ، لأنه يرى نفسه فرداً قد التفت حوله جماعات ، وتحلقت بين يديه فرق ، وشخصت إليه أبصار ، وأرهفت إليه أسماع ، فكأنها تحصى عليه الخطأ . أو تعد عليه الهفوات . ولهذا كان بعض الخطباء يتغلبون على هذا الشعور بأن يتناسوا أن أمامهم جمعاً ، ويمضوا فى الكلام على غايتهم ، لا يصدهم شعور طارئ ، ولا اعتبار مفاجئ . وكثيراً ما كان ديموستين — خطيب اليونان فى القرن الرابع قبل الميلاد — يغالب شعور التهيب هذا بأن يمرن نفسه على الخطابة أمام البحر الذى تهدر أمواجه ، فيعلو صوته صوتها . . .

وكثيراً ما يعترى الخطيب من عوارض التهيب ما يعترى الخائف الوجل من سرعة النبض ، ورشح الجبين بالعرق ، وانقطاع النفس ، وخفوق القلب . ولقد حدث ذلك لصعصعة بن صوحان وهو يخطب بين يدى معاوية ، فعرق حتى سالت قطرات العرق على منابت شعره ! فقال له معاوية : بهرك القول ! فقال صعصعة : إن الجياد نضاحة بالماء ! ومهما كان فى هذا الرد من براعة وتخلص من المأزق ، وتلطف فى الجواب ، فإنه لا يخفى الحقيقة التى حاول الخطيب أن يتخلص منها .

وقد فسر لنا الخليفة عثمان بن عفان علة الإرتاج عليه فى أول خطبة له ، بأن أول كل مركب صعب ، ووعد مستمعيه — إن عاش — بأن الخطب ستأتيهم بعد ذلك على وجهها ، وسيجعل الله بعد عسر يسراً !

ومما يؤكد لنا تهيب الخطيب وخوفه حين تشخص إليه الأبصار ، وترهف نحوه الأسماع ، ذلك الحادث الذى وقع لروح بن حاتم حينما صعد المنبر ، فقد

ذكروا أنه حين رأى الناس مدُّوا أبصارهم ، وفتحوا أسماعهم نحوه حصرَ ، فقال : « نكسوا رءوسكم ! وغضوا أبصاركم ! فإن المنبر مركب صعب ، وإذا يَسَّر الله فتْح قُفْل تيسر ! »

وكثيراً ما كان بعض العمال والولاة ممن لا يحسنون الخطابة ولا يجزئون فى مواقفها يكرهون كل مقام يحتاج فيه إلى خطبة ، ولو كانت خطبة الجمعة ! فلقد كان « عبد ربه اليشكرى » عاملاً لعيسى بن موسى العباسى على المدائن ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأرتج عليه ، فسكت ثم قال : « والله إنى لأكون فى بيتى فتجىء على لسانى ألف كلمة ، فإذا قمت على أعوادكم هذه — يقصد أعواد المنابر — جاء الشيطان فمحاها من صدرى ! ولقد كنت وما فى الأيام يوم أحب إلىّ من يوم الجمعة . فصرت وما فى الأيام يوم أبغض إلىّ منه ، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه ! » .

ولقد رويت فى كتب الأدب والأخبار كثير من حوادث الحصر والإرتاج لخطباء قطعت عليهم هيبة الموقف طريق القول ، وسدّت منافذ الكلام ، حتى لقد بلغت هذه المواقف مبلغ الفكاهات يتندر بها ، وحتى ليظن الافتعال والصنعة فى بعضها . كما ذكروا من أن مصعب بن حيان دُعى مرة ليخطب فى حفل زواج ، فأدركه الحصر . فقال : لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله ! فقالت أم العروس : عجل الله موتك ! ألهذا دعوناك ؟ !

وقد لا نصدق أن خطيباً يدركه الرهب فلا يفرق بين ما يقال فى المآتم والأفراح ، ولكن النفس حين تضطرب يعمى عليها الصواب ، ويخفى عليها الحق فتلبسه بالباطل وهى لا تعلم ، كما حدث لعتاب بن ورقاء الرياحى حين أخذ يحث الناس على الجهاد فى خطبة له ، فقال : « هذا كما قال الله تعالى فى كتابه :

كتب القتـــل والقتال علينا وعلى الغانيـــات جر الذيول !

فخلط المسكين فى رهبة المقام ، بين شعر ابن أبى ربيعة وبين كلام الله الذى لا يدانيه فى علوه كلام . . .

وقد يكون الرجل بانياً للدول يستقبل الموت فى المعارك ، ولكنه لا يستطيع أن يستقبل وجوه سامعيه فى المحافل ، لأنه يدركه من الخوف فوق المنابر ما لا يدركه فى ساحة القتال . فتعجب كيف يتهيب الكلام من لا يتهيب مواقع السهام ؟ ! ومن هؤلاء أبو العباس السفاح أول خلفاء العباسيين . فإنه صعد المنبر لأول عهده بالخلافة فاستحيا ولم ينطق بكلمة ، ولم ينقذ الموقف إلا داود بن على الخطيب العباسى المفوّه ، فما كاد يرقى بعض عتبات المنبر الذى يعلوه الخليفة الحصِر حتى قال : « أيها الناس ! إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فعله ، ولأثر الفعال ، أجدى عليكم من تشقيق المقال ، وحسْبكم بكتاب الله ممتثلاً فيكم ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفة عليكم ، والله — قسما برًّا لا أريد به إلا الله — ما قام هذا المقام أحدٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق به من على بن أبى طالب ، وأمير المؤمنين هذا — يعنى السفاح — فليظن ظانكم ! وليهمس هامسكم ! » فأجزأ فى موقف عجز فيه الخليفة العباسى الأول حتى لم تهمس شفتاه بهمسة واحدة .

على أن داود بن على هذا لم يسلم من الحصر بعد الذى رأيناه من إنقاذه موقف الخليفة السفاح ، وهذا مما يؤكد لنا أن الكلام يجىء ويروح فى مواقف الخطابة ، وأن النفس قد تطلبه فيعتاص عليها ولا يطاوعها ، وقد يجىء عفواً ويفيض فيضاً ، من غير طلب له ، ولا إلحاح عليه .

فقد روى صاحب « الصناعتين » و « زهر الآداب » والشريف المرتضى نبأ داود بن على العباسى حين صعد المنبر مرة ، فامتنع عليه الكلام بعد أن حمد الله وصلى على نبيه ، فأراد أن يعتذر من الحصر بكلمة كانت فى ذاتها ضرباً من الكلام البليغ فقال : « أما بعد ! فقد يجد المُعسر ، ويعسر الموسر ، ويُفلّ

الحديد ، ويقطع الكليل . وإنما الكلام بعد الإفحام ، كالإشراق بعد الظلام ، وقد يعزب البيان ، ويعقم الصواب ، وإنما اللسان ، مضغة من الإنسان ، يفتر بفتوره إذا نكل ، ويثوب بانبساطه إذا ارتجل . ألا وإننا لا ننطق بطرا ، ولا نسكت حصرا ، بل نسكت معتبرين ، وننطق مرشدين . ونحن — بعد — أمراء القول ؛ فينا وشجت أعراقه ، وعلينا عطفت أغصانه ، ولنا تهدلت ثمرته ، فنتخير منه ما احلولى وعذب ، ونطرح منه ما املولح وخبث ، ومن بعد مقامنا هذا مقام ، وبعد أيامنا أيام ، يعرف فيها فضل البيان ، وفصل الخطاب ، والله أفضل مستعان » .

ولا يحب الخطباء أن يقاطعهم الناس ، لأن فى مقاطعتهم قطعاً لسلسلة أفكارهم ، ومجالاً لهرب المعانى منهم ، ومعاناة لالتماسها بالكد والإجهاد ، وكل ذلك مما يؤثر فى موقف الخطيب . ومن الخطباء من يمرون بالمقاطعة لكلامهم مر الكرام باللغو ، لا يعيرونها التفاتاً ، ولا يلقون إليها بالاً ؛ ومنهم من يهتم بها ، ويعلق عليها ثم يعود إلى خطبته ليصل ما انقطع . ومن هؤلاء أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى ، فقد وقف يخطب الناس يوم جمعة ، فقال بعد الحمد والثناء : أيها الناس ! اتقوا الله. فقام إليه رجل ، فقال : أذكّرك منّ ذكرتنا به يا أمير المؤمنين. فقطع أبو جعفر الخطبة ثم قال : « سمعاً سمعاً لمن فهم عن الله ، وذكّر به ، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً ، وأن تأخذنى العزة بالإثم ، لقد ضللتُ إذن وما أنا من المهتدين .وأنت أيها القائل ! فوالله ما أردتَ بها وجه الله ، ولكنك حاولت أن يقال : قام فقال : ، فعوقب فصبر . . وأهون بها ! ويلك لو همت[1] ؛ فاهتبلها[2] إذ غفرتُ . وإياك وإياكم معاشر الناس أختها ! فإن

---

(١) أى لو همت بعقابك .

(٢) اهتبلها : انتهزها واغتنمها .

الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فُصِّلت ، فردوا الأمر إلى أهله ، توردوه موارده ، وتصدروه مصادره » ثم عاد إلى ما كان فيه قبل المقاطعة من خطبة الجمعة .

على أن من الخطباء من يعكس القضية فلا ينتظر حتى يقاطع هو بالأسئلة من غيره ، وإنما يصب هو الأسئلة صبًّا على خصومه حتى يرهقهم ، فلا يدع لهم سبيلاً إلى مقاطعته أو تقطيع أفكاره ، كما كان يفعل « جول فافر » الخطيب والمحامى الفرنسى المشهور فى القرن التاسع عشر .

عيوب الخطيب

قد يكون فى الخطيب من عيوب الخلقة ، ونقائص الصورة ما لا يؤثر فى فنه الخطابى بقليل أو كثير ، وإذا كان الشكل الجميل أروح للعين وأمتع للنفس ، فإن الخطيب القبيح الشكل قد يأسر ببلاغته وفصاحته ما يغطى على قبح صورته ودمامة خلقته . فقد ذكروا أن « ميرابو » خطيب الثورة الفرنسية كان قبيح الخلقة ، ولكن مزاياه فى الخطابة مما اشتهر فى تاريخ الأدب الفرنسى .

وما لنا نذهب بعيداً وعندنا الأحنف بن قيس ، فقد وصفه الهيثم بن عدى قائلاً : « ما رأيت خصلة تذم فى رجل إلا وقد رأيتها فيه ، كان صعل الرأس[1] ، أحجن الأنف ، أغضف الأذن ، متراكب الأسنان ، أشدق ، مائل الذقن ، ناتئ الوجنة ، باخق العين ، خفيف العارضين ، أحنف الرجلين ، ولكنه كان إذا تكلم جلّى عن نفسه » .

وقد يكون سقوط الأسنان آفة الخطباء ، ولكنه لا يمنعهم من الفصاحة

---

(١) الصعل : دقة الرأس ، والأحجن : مائل الأنف ، والأغضف : المسترخى الأذن ، والأشدق : الواسع الشدق . والبخق : أن تخسف العين بعد العور .

قدر ما يمنعهم من إبانة الحروف وتوضيح مخارجها . على أن سقوط الأسنان كلها أصلحُ فى الإبانة من سقوط بعضها وبقاء البعض الآخر ، فقد كان سفيان ابن الأبرد القائد الأموى ساقط الأسنان جميعها ، ومع هذا كان خطيباً مبيناً .

وقد ذكر الجاحظ فى « البيان والتبيين » طائفة من عيوب النطق عند الخطيب . مما يخرج الحروف على غير وجوهها ، ويعترض سهولة مخارجها ، وعد من ذلك اللثغة . والحكلة[1] . والحبسة ، واللفف ، واللجلجة ، والفأفأة ، والتمتمة . وهى عيوب قد تورث أو تكتسب ، ولكن الطب الآن خطا خطوات فساحاً فى معالجتها أو التقليل من خطرها .

ومن الخطباء من كان يحتال على عيوب نطقه بمجافاة الحروف التى كانت تقع فيها . كما فعل واصل بن عطاء وهو شيخ من شيوخ الاعتزال ، فقد كان يلثغ فى الراء ويجعلها غيناً . فاستطاع أن يعرى كلامه منها ، وأن يجعلها لا تقع له فى خطاب . بما يجدُ لها من الألفاظ المترادفة التى تؤدى معناها . وقد كانت تسعفه القدرة اللغوية على ذلك ، إلى حد لم يخُل من إبداء الدهشة ، وضرب المثل بالمقدرة .

وأعجب ما فى أمر واصل بن عطاء أنه لم يتجنب الراء فى الخطب المجهزة والأحاديث المحبرة فحسب ، ولكنه تغلب على العيب الذى منى به حين كان يرتجل الخطب أو يحاج الخصوم ، أو يناقل الأكفاء من علماء الكلام وأصحاب المذاهب والنِّحل .

ومن عيوب الخطيب اللحن ، وهو إخراج الكلام على غير وجوهه من النحو أو الصرف أو اللغة . وقد كان خطباء الجاهلية أبعد الناس عن اللحن ، لمكانهم

---

(١) الحكلة : العجمة فى الكلام ، واللفف : البطء فى الكلام ، واللجلجة : التردد فى الكلام ، والفأفأة : ترديد الفاء ، والتمتمة : رد الكلام إلى الفاء والميم ، واللثغة : تحول بعض الحروف إلى بعض كالراء غيناً ، والسين ثاء .

من الفصاحة والبداوة التى لم تفسدها الحضارة . فقد كانت اللغة فطرة فيهم لم تشُبها مخالطة الأعاجم وفساد الألسنة . فلما دخل اللحن إلى اللغة بدأ يجد طريقه إلى الخطباء ، حتى وجدنا من بلغاء الخطباء من كان لحَّاناً ، كخالد ابن عبد الله القسرى ، وخالد بن صفوان الأهتمى . ولأمر ما عَدَّ عبد الملك ابن مروان اللحن فى المنطق هجنةً على الشريف ، أو أقبح من التفتيق فى الثوب النفيس .

وقد يلجأ بعض الخطباء إلى الترداد فى عباراته توكيداً للمعنى الذى يريده ، وتقريراً له فى ذهن السامع ، ولن يكون ذلك عيباً إلا إذا بلغ حدًّا يمل معه الكلام ويسأم السماع . وإلا فهو يحلو فى الخطابة كما يحلو فى الكتابة . ومقامات الكلام هى التى تحدد الترداد على قدر أحوال المستمعين ، وعلى قدر إرادة الخطيب توكيد المعانى فى أذهانهم ، وعلى قدر ما يحتمله المقام من المقال .

وقد يستعين بعض الخطباء على متابعة الكلام بلوازم يكررونها فى أفواههم ويديرونها على ألسنتهم ، كأنما يجتلبون بها الألفاظ ، ويتصيدون بها العبارات . كأن يقول الواحد منهم عند مقاطع كلامه : يا هذا ، يا هيه ، اسمع منى ، افهم عنى ، استمع إلىّ ، وأشباه هذه الكلمات مما نسمعها تتردد على ألسنة بعض الناس حين يتحدثون حديثاً عاديًّا ، وهى إذا كانت دلالة العجز فى الحديث فهى فى الخطابة أدل على العجز ، وأبين على العىّ .

ومن عيوب الخطيب أن يتوقف أو يتحبس فى كلامه أو يتنحنح . وليس التنحنح إلا حيلة يصل بها الخطيب إلى لفظ يستدعيه من بُعد ، أو معنى يتصيده بعد استعصاء ، فهو وقفة فى الذهن يعبر عنها ذلك الصوت الخلص الذى يحمل من دلائل القصور ، أكثر مما يحمل من مطاوعة التعبير . . .

النساء الخطيبات

إذا كان النساء الشواعر قلة نادرة فى الأدب العربى بالنسبة إلى ذلك العدد الضخم من الرجال ، فإن الخطيبات من النساء أقل من القليل فى أدبنا وفى الآداب الأخرى التى نعرف تاريخها فى القديم والحديث .

ولن نلقى القول هنا جزافاً بغير دليل . فلو رجعت إلى ما دون لنا من خطب اليونان والرومان لم تكد تظفر باسم أنثى واحدة بين ذلك العدد العديد من الرجال . ولو رجعت إلى كتاب فى تاريخ الأدب الفرنسى من نشأته المعروفة حتى عصرنا هذا فلن تظفر باسم امرأة واحدة بين عشرات الأسماء من الرجال الخطباء ، من عهد بودان ، وسان فرنسوا دى سال ، إلى عهد چول فافر ، ولاكورديير ، وغامبتا ، وديدون . ولن ترجع من البحث بجدوى حين تفتش فى تاريخ الأدب الإنجليزى عن خطيبة واحدة ، إلا ما يصادفك من أسماء بعض المتحدثات أو المتكلمات فى العصر الحديث .

وستلقاك من الرجال الخطباء على مر العصور أسماء قرعت سمع الدهور حتى بقيت لنا أصواتها قوية مجلجلة كعهدها بالأمس البعيد أو القريب ، من أمثال ديموستين ، وشيشرون . وإدمون برك ، وبرايت ، وميرابو ، وغامبتا ، ووليم بت ، وغلادستون ، ولنكولن ، وكافور ، وكوشوت المجرى عند الفرنجة ، ومحمد ابن عبد الله صلوات الله عليه ، وعلى بن أبى طالب ، والحجاج ، وزياد بن أبيه ، وابن الفجاءة ، وابن نباتة ، وعبد الله النديم ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول عند العرب والمسلمين . ولكنك لن تلقى امرأة خطيبة واحدة تركت وراءها من جهارة الصوت ، وبلاغة النطق ، ونصاعة البيان فوق المنابر ما يدانى ذلك المكان ، الذى تركه الرجال فى هذا الميدان .

على أن من النصفة للأدب العربي وللمرأة العربية أن لا نغفل فى هذا المقام ذكر بعض النساء الخطيبات اللائى أثِرَ عنهن من المواقف ما لم يضنّ التاريخ الأدبي بتسجيله لهن .

ولقد كان للحركة الشيعية فضل فى إظهار بعض الشخصيات النسوية المحاربة الموالية لعلى عليه السلام ولأهل البيت . وقد امتاز هؤلاء الشيعيات — فوق جرأتهن وبلائهن فى سبيل العقيدة — بمقدرة خطابية لعلها كانت ثمرة ضرورية من ثمار ذلك العهد المقاتل المتنازع الذى اعتمد على قوة السيف من ناحية ، وعلى قوة البيان من ناحية أخرى .

ولقد كانت الحرب بين على ومعاوية أو بين أهل الشام وأهل العراق ، ميداناً فسيحاً لمواهب المحاربين والخطباء ، حتى لقد كانت امرأة مثل « عكرشة بنت الأطرش » متقلدة حمائل السيوف فى موقعة صفين المشهورة ، وهى واقفة بين الصفوف تحض على قتال معاوية قائلة : « أيها الناس ! عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . إن الجنة لا يرحل من أوطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها . وكونوا قوماً مستبصرين فى دينهم ، مستظهرين بالصبر على طلب حقهم . إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب ، غُلْفِ القلوب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرون الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبوه ، فاللهَ اللهَ عباد الله فى دين الله ! إياكم والتواكل فإن ذلك ينقض عُرا الإسلام ، ويطفئ نور الحق . هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى . يا معشر المهاجرين والأنصار ! امضوا على بصيرتكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالحُمُرِ الناهقة ، تصقع صقع البعير » .

ولم تكن عكرشة هى الخطيبة الوحيدة فى الحروب بين على ومعاوية ، لقد كانت هناك أم الخير بنت الحريش التى طالما ألّبت على معاوية وحرضت على

قتاله ، واتهمته بإذكاء الأحقاد الجاهلية التى محاها الإسلام ، ودعت إلى الإمام العادل علىٌ توحيداً للكلمة ، ورأباً لصدع المسلمين. ولقد أثرت لها خطبة خطبت بها الناس وهى على جمل أرمك كلون الرماد ، وبيدها سوط قد انتشرت ضفائره ، وهى تهدر كالفحل من الإبل يهدر فى شقشقته ، وتقول : « يأيها الناس ! اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبان الدليل ، وبين السبيل ، ورفع العلَم ، ولم يدَعكم فى عمياء مدلهمَّة ، فأين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين؟ أم فراراً من الزحف ؟ أم رغبة عن الإسلام ؟ أم ارتداداً عن الحق ؟

أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول : « ولنبلونَّكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم » ؟ ، ثم رفعت رأسها إلى السماء ، وهى تقول : اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرغبة ، وبيدك يا رب أزمَّة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله . هلموا — رحمكم الله — إلى الإمام العادل ، والرضى التقى ، والصديق الأكبر ، إنها إحن بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحدية ، وثب بها معاوية حين الغفلة ، ليدرك ثارات بنى عبد شمس . « قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » صبراً يا معشر المهاجرين والأنصار ! قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم ، فكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة ، فرت من قسورة ، لا تدرى أين يُسلك بها من فجاج الأرض . باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وعما قليل ليصبحن نادمين ، حين تحل بهم الندامة ، فيطلبون الإقالة ، ولات حين مناص . إنه من ضل والله عن الحق وقع فى الباطل . ألا إن أولياء الله استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستطابوا الآخرة فسعوا لها ، فاتقَ الله أيها الناس ! قبل أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود ، وتقوى كلمة الشيطان . فإلى أين تريدون — رحمكم الله — عن ابن عم رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وصهره ، وأبى سبطيه ؟ خلق من طينته ، وتفرع من نبعته ، وجعله باب دينه ، وأبان ببغضه المنافقين . وها هو ذا مفلق الهام ، ومكسر الأصنام ، صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون . فلم يزل فى ذلك حتى قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أحد ، وهزم الأحزاب ، وقتل الله به أهل خيبر ، وفرق به جمع هوازن ، فيا لها من وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقاً ، وردة وشقاقاً ، وزادت المؤمنين إيماناً . قد اجتهدتُ فى القول ، وبالغت فى النصيحة ، وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله ! » .

وكان للزرقاء بنت عدى الهمدانية موقف لا يقل روعة عن موقف أم الخير فى الحث على قتال معاوية ، حتى إنه لم ينس خطبتها وهى راكبة الجمل الأحمر يوم صفين ، وحين استقدمها من الكوفة بعد أن صارت إليه الخلافة ذكرها بخطبتها التى قالت منها يوم ذاك : « أيها الناس ! ارعووا وارجعوا ، إنكم قد أصبحتم فى فتنة غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيا لها فتنة عمياء صماء بكماء ! لا تسمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها . إن المصباح لا يضىء فى الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه . أيها الناس ! إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص ، فكأن قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة الحق ، ودمغ الحق الظَّلمة ، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف وأنَّى ؟ ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . ألا وإن خضاب النساء الحنَّاء ، وخضاب الرجال الدماء ، ولهذا اليوم ما بعده ، والصبر خير فى الأمور عواقبا . إيها فى الحرب قدماً ! غير ناكصين ولا متشاكسين ! » .

وإذا كان تاريخ الأدب قد حفظ لنا اسم « الخنساء » شاعرة مجيدة فى رثاء أخويها صخر ومعاوية وأبنائها الذين استشهدوا فى حرب القادسية ، فإنه حفظ لنا اسم صفية بنت هشام المنقرية خطيبة مجيدة فى رثاء ابن عمها الأحنف بن قيس ،

وسنذكر ذلك فى موضعه من الكتاب عند الكلام على خطب الرثاء .

ومما تفخر به أعواد المنابر فى العصر الحديث أن فتاة عربية كان لها على المنبر مواقف عرفت فيها بحسن الإلقاء ، وبلاغة الأسلوب ، ورشاقة التعبير ، ونبالة الأفكار ، وخدمة المجتمع ، وحسن الإعداد . تلك هى الكاتبة الخطيبة « الآنسة مى » ؛ وكانت تجود خطبها المعدة تجويداً يزيده الإلقاء جمالاً . وطالما سعت إليها المنابر العربية فى لبنان ومصر ، مكرمة ، أو مودعة ، أو داعية إلى إصلاح ، أو متحمسة لحركة النهضة النسائية ، أو رائدة من رائدات التقدم الحديث ، أو محاضرة فى الأدب ، أو راثية وافية ، كمرثيتها الخالدة فى تأبين « باحثة البادية » بمناسبة مرور عام على وفاتها سنة ١٩١٩ .

أما خطبتها فى « المرأة والتمدن » التى ألقتها على منبر النادى الشرقى سنة ١٩١٤ فلا بأس أن نذكر منها فى ختام هذا الفصل هذه العبارات : « أيها السيدات والسادة ؛ نحن فى فصل الربيع ، والحياة تنبض بقوة فى كل جزء من أجزاء الكون ، ونيسان « شهر إبريل » رسول الجمال ، ونبى النور ، يسلم أنفاسه الأخيرة ، تاركاً جماله وأنواره فى ذمة أيار « مايو » ملاك الورود ؛ إذن لست بحاجة للبحث عن موضوع أحدثكم به ، فإن الفصل المارّ بنا يوحى إلىّ موضوعاً جميلاً : الأزهار ! تلك المخلوقات العجيبة التى لا تراها نفس حساسة إلا وتشعر بأنها إزاء سر غامض ، قد التف بألوان الحدائق والرياض ، وستر معانيه بعطورها ! على أن الوقت ليل ، ورداء الظلام يحجب عن النواظر وضوح الأشياء ، والأزهار التى تتفتح فى النهار وريقاتها كأعلام نصر منشورة ، تنكمش لملامسة الليل ، لأن رطوبة الليل تذبلها . . لكنى سأبدلها بزهرة أوفر منها جمالا ، وأتم شكلا ، وأدعى إلى التفكير ، وأحرى باهتمام ذوى القلوب الغيورة الرحيمة ... تلك الزهرة التى تضم فى كيانها آيات الحسن الكبرى ، وأسرار الحنان الذى لا يدرك ولا ينقضى ... تلك الزهرة التى يعذبها ظمأ الحرية ، وتتجاذبها العواصف

وتتقاذفها صرعات الزمان منذ أجيال طوال ، فلا ينقصف غصنها ولا يلتوى . .

تلك الزهرة النارية التى تناول الدهور آمال المستقبل ، وتنقل من ذرية إلى ذرية قبس الحياة العظيم . . لقد عرفتم تلك الزهرة العجيبة . هى المرأة ! » .

وهكذا كان أسلوب « مى » الخطيبة ، يفيض بالحيوية والرشاقة والعطر الذى كانت تعصره تلك المرأة من قلبها الكبير . . .